الفصل السابع والعشرون

الشيخ يوسف الأسير

هو الشيخ يوسف بن السيد عبد القادر الحسيني الأسير، وُلد في مدينة صيدا من أعمال سورية سنة ١٢٣٠ه، وربِّي في حجر والده، وتلقى مبادئ العلوم فختم القرآن وهو في السابعة من عمره، وكان أبوه تاجرًا، فلم يمِلْ هو إلى التجارة، بل عكف على العلم، فدرس شيئًا على الشيخ أحمد الشرمبالي، وكان ميالًا منذ نعومة أظفاره إلى العلم، فلما بلغ السابعة عشرة شخص إلى دمشق، ومكث في مدرستها المرادية نحو سنة، فأخذ شيئًا من العلم عن علمائها، ثم بلغه خبر وفاة والده فعاد إلى صيدا ودبَّر أحوال إخوته، ومهَّد لهم سبيل المعيشة.

ونظرًا لتعلقه بالعلم لم تطِبْ له الإقامة في صيدا، فشخص إلى الديار المصرية وأقام في الجامع الأزهر سبع سنين يتبحر في العلوم، وفيه إذ ذاك جماعة من فطاحل العلماء؛ كالشيخ حسن القويسني، والشيخ محمد الدمنهوري، والشيخ محمد الطندتاوي، والشيخ محمد الشبيني، وغيرهم، فنبغ في جميع العلوم العقلية والنقلية؛ كاللغة، والفقه، والحديث، والتفسير، وصار إماما يرجع بها إليه، حتى أعجب به أساتيذه، فكتب إليه الشيخ محمد الطندتاوي (وكان إذ ذاك في بطرسبورج) قصيدة يمدحه فيها ويثني على علمه وفضله.

وكان في أثناء إقامته بمصر يجالس أكابر علمائها، وكثيرًا ما كان يحضر الامتحانات العمومية التي كانت تجري بحضور عزيز مصر إذ ذاك في المدارس العمومية، فيقترح أكثر المسائل على التلاميذ بإشارة مشائخه.

ثم اعتراه مرض الكبد فعاد إلى صيدا، ولكنه لم يرتَح إلى الإقامة فيها؛ إذ لم يجد فيها مجالًا لنشر فضله، فسافر إلى طرابلس الشام فلاقى من علمائها ووجهائها حسن الوفادة والرعاية، فقضى بينهم ثلاث سنوات لم يخلُ مقامه يومًا من جماعة منهم، وأخذ

الشيخ يوسف الأسير ١٢٣٠هـ–١٣٠٧هـ.

عنه العلم كثير من أفاضلهم، وأخيرًا اختار الإقامة في بيروت لجودة هوائها، فهرعت إليه الطلبة، وكثر مريدوه، وتولى في أثناء ذلك رئاسة كتابة محكمة بيروت الشرعية في أيام قاضيها مصطفى عاشر أفندي، ثم تولى الفتوى في مدينة عكا، ثم تعيَّن مدعيًا عموميًّا في جبل لبنان على عهد متصرفه داود باشا، ثم انتقل إلى الآستانة العلية وتولى رئاسة التصحيح في دائرة نظارة المعارف، وتعيَّن في الوقت نفسه أستاذًا للغة العربية في دار المعلمين الكبرى.

ونال في أثناء إقامته بالآستانة مقامًا رفيعًا بين رجال الآستانة، وعرضوا عليه منصبًا من المناصب الرفيعة براتب جزيل على وعد الترقي، فأبى رغبة في مواصلة خطته العلمية، ثم ثقلت عليه وطأة البرد في الآستانة وهمَّ بالرجوع إلى بيروت، فأسف وزير المعارف إذ ذاك على خسارته، وماطله في قبول استعفائه على أمل استبقائه؛ لما آنس من سعة علمه، وعاين من رواج الكتب التي صححها، ولكنه أصرَّ على النزوح إلى ربوع الشام، فعاد إليها وأقام في بيروت، وأخذ يبث العلم بين طلبتها، وأكبَّ على التأليف والتصنيف، وكان اشتغاله غالبًا في الفقه واللغة، فألَّف كتابًا في الفقه سمَّاه رائض الفرائض، وشرح كتاب أطواق الذهب تأليف الزمخشري، ونظم كثيرًا من القصائد الرنانة، طُبع منها جانب كبير في ديوان يعرف باسمه.

وكان على جانب عظيم من الرقة والدعة ولين الجانب وحسن المعاشرة، يحب العلم والعلماء، ويأخذ بناصرهم، وكان شافعي المذهب، سالكًا مسلك الأقدمين في حب العلم والرغبة في نشره ابتغاء الفائدة العامة، وكان لحسن عقيدته راغبًا عن الدنيا زاهدًا فيها ثابتًا في اتباع فروض الدين، لا يستنكف من حمل حاجيات بيته الضرورية بنفسه، وكان كثير الشغف بتلاوة القرآن الكريم أو سماعه كل يوم.

وكان ربع القامة، معتدل الجسم، أسمر اللون، أسود الشعر، كثَّ اللحية، صادق الوعد، قوي الذاكرة، إذا سئل أجاب في أي موضوع كان مع تقريب الموضوع من ذهن السامع ببسيط العبارة.

توفي سنة ١٣٠٧هـ وله من العمر سبع وسبعون سنة، ودفن في مقبرة الباشورة ببيروت، وترك خمسة ذكور وبنتين، ولم يترك لهم شيئًا سوى الذكر الحسن، وقد أسف أهل بيروت وسائر أهل الشام على فقده؛ لأن جماعة كبيرة منهم أخذوا العلم عنه، وما برح مرجعًا للفائدة علمًا وعملًا حتى توفاه الله.